

نذر الحرب الجديدة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تشهد معظم العواصم الأوربية منذ أشهر فترة غير عادية من النشاط السياسي؛ وقد تحول هذا النشاط منذ مأساة مرسييا التي ذهب ضحيتها الملك اسكندر ملك يوجوسلافيا ومسيو يارتو وزير الخارجية الفرنسية، الى نوع من الحمى الدبلوماسية. وتلوح اليوم في أفق السياسة الأوربية سحب كثيفة تشير الجزع في كثير من العواصم والأمم. ما الذي سيعقب مأساة مرسييا من الحوادث والتطورات سواء في يوجوسلافيا ذاتها أم في أوروبا بصفة عامة؟ وهل يكون السلم في خطر حقيقي؟ وهل تشهد اليوم مقدمات أزمة دولية مستعصية قد تقضي الى نشوب الحرب؟ هذه الأسئلة الخطيرة تتردد اليوم في جميع دوائر السياسة العليا لا على أنها هواجس واحتمالات بعيدة الوقوع، ولكن على أنها فروض حقيقية خطيرة يجب التحوط لها.

وقد لوحظ بحق أن للجريمة السياسية شأنًا كبيرًا في إثارة هذه السحب التي تملق اليوم في أفق السياسة الأوربية؛ فثند أشهر قتل مسيو دوكا رئيس الوزارة الرومانية فترتبت على مقتله سباب وأزمات ما زالت رومانيا تعاني من أثرها؛ وفي أواخر يولية الماضي قتل المير دولفوس رئيس الحكومة النمساوية في ظروف وحشية فأثار مقتله أزمة سياسية خطيرة لا في النمسا وحدها، ولكن في أوروبا الوسطى كلها، وذهبت إيطاليا في إجراءاتها وتحولاتها لصون استقلال النمسا من اعتداء ألمانيا وعمالها المأجورين، الى حشد الجنود على حدود النمسا الجنوبية، ولاح شبح الحرب واضحًا مدى حين. ثم كان مقتل الملك اسكندر ومسيو يارتو أخيرًا في مرسييا، فلبت الأزمة الأوربية في أروع مظاهرها، وتجددت نذر الخطر وأحداث الحرب. ويخشى المتشائمون أن يكون التاريخ إنما يعيد نفسه، وأن تكون مأساة مرسييا قرينة مأساة سيراچيفو ونظيرتها في الظروف والنتائج. والحقيقة أن مؤرخ الحرب الكبرى لا يسهه الا أن يعتبر مأساة سيراچيفو من أهم العوامل — الظاهرة على الأقل — في إثارة الحرب. فقد اتخذت امبراطورية النمسا والمجر مقتل الأرشيدوق

فرتر فردينند وقربنته في سيراچيفو في ٢٨ يونيو سنة ١٩١٤ يد طالب سرب سببًا لاعتبار حكومة سربيا مسؤولة عن الجريمة مباشرة ومطالبها في بلاغ نهائي بمطالب عدتها سربيا انتحانًا على سيادتها؛ وشدت ألمانيا أزرانها في موقفها، ولكن روسيا تدخلت لتعضيد سربيا ضد النمسا باعتبارها حامية الشعوب السلافية. وكانت الأزمة الخطيرة التي أدت الى وقوع الحرب بعد ذلك بأسابيع قلائل وإذا لم يمكن الجريمة مرسييا مثل هذه النتائج السريعة الحاسمة، فلا ريب أنها زادت الأزمة الأوربية تعقيدًا وخطورة، وكانت عاملًا جديدًا عميق الأثر في زعزعة السلام الأوربي. وإذا وقعت حرب جديدة في القريب العاجل، فان جريمة مرسييا تكون بلا ريب بين عواملها الأولى. ومن المعروف أن السياسة الأوربية كلها تقوم اليوم على تهينة أسباب الهجوم والدفاع في الحرب القادمة، وأنها تأخذ الطابع القديم الذي يوصف في لغة السياسة بالسلم المسلح، أو السعي الى صون السلام بالاستعداد للحرب دائمًا. ومثل هذه السياسة تخضع دائمًا لأزمات الساعة، لأنها تقوم على الأثرة والقومية المفرقة، وليست تحدها أية مثل إنسانية أو دولية عامة. وقد وقعت جريمة مرسييا في وقت تجتمع فيه أوروبا في معسكراتها القديمة التي حالت آثار الحرب الكبرى مدى حين دون بعضها وتكونها. والدول التي تسيطر على مصير السياسة الأوربية اليوم هي فرنسا وألمانيا وإيطاليا وروسيا؛ وهي التي تتجاذبها في تكوين المعسكرات الهجومية والدفاعية؛ وفرنسا أشدها سيطرة على الموقف ونفوذًا في تطوراتها، ومقصد السياسة الفرنسية معروف هو العمل بكل الوسائل لعزل ألمانيا عن باقي الدول الأوربية حتى لا تقوى بالتحالف على مهاجمة فرنسا، وإحاطتها بسياج من الدول الحصينة المتأثرة بالسياسة الفرنسية حتى تبقى دائمًا في موقف الأحجام والضعف؛ وإذا وقعت حرب فان فرنسا تستطيع بمعاونة حلفائها أن تنقلب على ألمانيا. وقد سارت فرنسا في هذه السياسة الى ما قبل جريمة مرسييا شوطًا بعيدًا، واستطاعت أن تجذب روسيا السوفيتية الى معسكرها وأن توثق سياسة التحالف الروسي الفرنسي القديم بعد أن لبثت روسيا مدى حين بعيدة عن حظيرة الدول الغربية، وأن تتوج هذا التحالف بالعمل على ضم روسيا الى عضبة الأمم بعد أن لبثت تخاصمها منذ قيامها. وقد كانت السياسة الألمانية ما قبل الحرب تقابل التحالف الروسي الفرنسي بالتحالف الألماني النمساوي.

ولكن امبراطورية النمسا والمجر القديمة قد ذهبت وقامت على
أبقاضها دول مخاصم ألمانيا أو تتأثر بالسياسة الفرنسية . والسياسة
الفرنسية هي التي خلقت كتلة التحالف الصغير في أوروبا الوسطى
من يوجوسلافيا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا ، وهي التي توجهها في
سياسها الأوربية . ولما قامت الحركة الهتلرية في ألمانيا ، وظهرت
ألمانيا في صورة المهدد لفرنسا ، والمهدد للسلام الأوربي ، ضاغت
فرنسا جهودها في توثيق التحالف بينها وبين روسيا ودول
التحالف الصغير خصوصاً بعد أن شعرت أن بولونيا قد أخذت
تتحرر من نفوذها وتتجه نحو ألمانيا . وكان من أهم أغراضها أن
تجذب يوجوسلافيا بصورة نهائية الى جانب السياسة الفرنسية
لأنها شعرت أن السياسة الألمانية قد أخذت تتجه نحو يوجوسلافيا
وتحاول كسبها بوسائل شتى . ولكن فرنسا رأت من جهة أخرى
أن هذا التحالف لا يحقق الغاية المنشودة إلا اذا آزرته إيطاليا .
وبين إيطاليا ويوجوسلافيا خصومة قديمة ، فيجب أن تذلل قبل
كل شيء

لهذا كانت رحلة مسيو بارتو الى يوجوسلافيا ، وكانت رحلة
الملك اسكندر إلى فرنسا ، وكان المقرر أن تكون مفاوضات
الملك اسكندر مع الحكومة الفرنسية تمهيداً لمفاوضات فرنسية
إيطالية تجري في روما ، وتسوى فيها جميع المسائل والخصومات
القائمة بين إيطاليا ويوجوسلافيا من جهة ، وبين فرنسا وإيطاليا
من جهة أخرى ، وكان الأفق مناسباً لتحقيق هذا البرنامج ،
لأن إيطاليا كانت قد بدأت في الآونة الأخيرة تتباعد عن ألمانيا
على أثر حوادث النمسا التي انتهت بمقتل المير دلفوس ، وافتتاح
نيات ألمانيا ومشاريعها نحو الاعتداء على النمسا ؛ وتم الشطر
الأول من هذا البرنامج بالمفاوضات التي وقعت في بلغراد بين
فرنسا ويوجوسلافيا ؛ ولكن الشطر الآخر لم يتحقق لأن الملك
اسكندر ما كاد يبطأ أرض فرنسا حتى سقط قتيلاً برصاص
الوطنيين الكرواتيين وسقط إلى جانبه مسيو بارتو ؛ وأخرت
هذه المأساة مشاريع السياسة الفرنسية إلى حين ؛ وأودت بمشاريع
حكومة بلغراد ، وبثت إلى أفق السياسة الأوربية ، ولا سيما
أوروبا الوسطى ، ريباً وهواجس جديدة ، وأثارت صيحة الحرب
مرة أخرى

والواقع أن مقتل الملك اسكندر كانت ضربة شديدة
ليوجوسلافيا ؛ وقد بينا في مقال سابق كيف أن تكوين

يوجوسلافيا الجديدة من عناصر متنافرة خصيمة يعرض وحدتها
للتمزق دائماً ، وكيف أن هذه الوحدة تقوم على أسس مصطنعة
في ظل طغيان خديدي كان الملك اسكندر عماده وقائده ، فالآن
يهدق الخطر بهذه الوحدة المفضوبة ، وتقف حكومة بلغراد حائرة
متوجسة من المستقبل القريب ؛ وتقف إيطاليا أيضاً مترددة تسبر
غور الاحتمالات الجديدة . هل تستمر في الاصفاء إلى عرض
السياسة الفرنسية ، فهان يوجوسلافيا وتحالفها وتدخل في
حظيرة هذا التحالف الذي يجمع دول الاتفاق بالصغير ورومانيا
إلى جانب فرنسا ؟ وما يزيد في تردد إيطاليا ما تحاوله ألمانيا لديها
الآن من تحويلها عن ذلك الطريق ، وإعلان استعمادها لفضان
استقلال النمسا ، وتسوية المسائل الأخرى التي تهم إيطاليا ؛ بيد
أن السينيور موسوليني يقف الآن وقفة المنتظر ليرى أولاً ما يمكن
أن تحدثه آثار جريمة مرسيليا في شئون يوجوسلافيا الداخلية ،
وهل يوجد ثمة ما يحمل على الاعتقاد بقرب تفكك هذه الكتلة
السلافية الخطرة التي خلقها معاهدة الصلح ، والتي تنازع إيطاليا
مبادتها في بحر الأدرياتيك ، وتهدد نفوذها في البلقان وأواسط
أوروبا ، وهل تقوم في يوجوسلافيا حركة انفصالية ، يقوم بها
العنصر الكرواتي خصيم العنصر السربي الذي يستأثر بالسلطة
في يوجوسلافيا ، ويضطهد العناصر الأخرى ؟ فإذا آس موسوليني
شيئاً من هذه البوادر فقد يفضل أن يستبق حريته في العمل
مدى حين ؛ وعندئذ تعمل إيطاليا من جانبها على تشجيع العناصر
الانفصالية في يوجوسلافيا ، حتى يتم تفكك هذه الكتلة
السلافية ، وتستطيع إيطاليا أن تتجه يصرها نحو دلتايا التي
تطمح إلى امتلاكها ، وعندئذ يتهار التحالف الصغير أيضاً ، ويفتح
أملها مجال العمل في أوروبا الوسطى

على أن فرنسا تعمل من جهة أخرى بكل ما وسعت لتحقير
التفاهم والتحالف مع إيطاليا . وهي على أهبة لأن تضحي في هنا
السبيل يبذل بعض المطالب التي تطمح إيطاليا إلى تحقيقها . وما
تعرضه فرنسا على إيطاليا يتحصر فيما يأتي : (١) تعديل الحدود
الطرابلسية من جهة تونس ، والتجاوز لإيطاليا عن بعض المناطق
التاخمة لبرقة (٢) عدم مقاومة التوسع الإيطالي في طرابلس من
جهة الجنوب في اتجاه بحيرة تشاد (٣) عدم مقاومة مشاريع
إيطاليا وأطاعها في الحبشة (٤) تسوية مسألة الرعايا الإيطاليين في
تونس ، ومنحهم بعض الحقوق والزايا الخاصة ؛ فهذه عروض

والسلاح ، والفشل الذريع . الذي لقبته عصبة الأمم في حل مختلف المشاكل الدولية ؛ وأنهيار سياسة التفاهم الدولى والتحكيم التي بلغت ذروتها بعقد ميثاق تحريم الحرب ، ولم يلبث أن ظهر عقهما من الوجهة العملية ، ثم قيام الحركة المثلية في ألمانيا وماجنحت اليه من سبل العنف والوعيد ، وما أثارته في فرنسا من هواجس ومخاوف جديدة . بيد أن هذه الأسباب كلها ترجع الى أصل واحد ، هو معاهدة الصلح (معاهدة فرساي) التي لم يراع في وضعها سوى تحقيق شهوات الظافرين وأطماعهم ؛ ولم يقصد بها الى وضع أى سلام شريف دائم ، ولكن أريد بها تحطيم قوى الأمم المغلوبة ، وتزويق وحدتها القومية دون مراعاة الحدود الجغرافية ووحدة العناصر وتراث التاريخ ، فجاءت كالبركان الصامت يضطرم في خفاء ، ولكن تسرى ناره تحت المشيم ، وغدت أعظم عامل في إثارة الأحقاد والأطماع القومية ، وخلقت مشاكل الحدود والأقليات الشائكة في طول أوروبا وعرضها ، ومهدت الى هذه الأزمة الشاملة التي تهب ريجها اليوم على أوروبا منذرة بشر المواقب

وكأن الأزمة الدولية الكبرى التي اجتمعت أسبابها قبيل الحرب قد لقيت نذير انفجارها في مأساة سيراچيو ، فسكذلك تلتى الأزمة الدولية الحاضرة نذيراً خطراً في مأساة مرسيلى ، واذا كانت حكومة النمسا الأبراطورية قد رأت يومئذ أن تحمل الحكومة السرية تبعات هذه الجريمة الرائعة ، وأن ترتب عليها من الطالب الفادحة ماأثرت له روسيا وعجل بوقوع الكارثة ، فسكذلك ترى حكومة بلغراد أن تحمل الحكومة المجرية تبعات جريمة مرسيلى ، لأنها تأوى في أرضها عدداً كبيراً من اللاجئين الكرواتيين ، وتتقدم اليها بمطالب ترى فيها افتئاتاً على سيادتها ؛ وقد يكون ثمة فارق بين وقع الجريمة في سير الأزمة الأوربية ، ولكن الذى لا ريب فيه هو أن جريمة مرسيلى من أخطر العوامل في تفاقمها . فسلام أوروبا ، وربما سلام العالم ، في خطر لا ريب فيه ، واذا تركت الأمور في مجراها الحاضر ، ولبثت الأحقاد والأطماع القومية على حلقها مطلقة العنان ، واذا لم تتصافر القوى الزهية المخلصة لقضية السلام وتقف سداً متيناً في وجه هذا التيار الخطر ، فسوف نشهد في القريب العاجل انفجار البركان المروع مرة أخرى ؟ محمد عبد الله عثمان المحامى

ومزايلا لا تستطيع إيطاليا أن تأبى قبولها ، خصوصاً إذا علمنا أن التوسع الاستعماري قد غدا من أعظم أهداف السياسة الفاشستية . وعلى أى حال فإن برنامج السياسة الفرنسية لم يتغير بمقتل مسيو بارتو ، وقد أعلن مسيو لافال وزير الخارجية الجديد أنه سيعمل لاتمام ما بدأ به سلفه ؛ وسوف يقوم بزيارة رومة كما كان مقرراً من قبل للمفاوضة في تحقيق البرنامج المرسوم

هذه هي خلاصة العوامل التي تسيطر الآن على مجرى السياسة الأوربية . والظاهرة الجوهرية التي تبدو خلال ذلك كله هي اشتداد التنافس في إحياء المسكرات الأوربية القديمة ، وإنشاء الكتلة الهجومية الدفاعية التقليدية . لماذا ؟ استعداداً لحرب تلوح في الأفق . وما زالت فرنسا هي المتفوقة في هذا الميدان ، ولكن ألمانيا تعمل أيضاً ، ورغم عزلتها السياسية على إنشاء معسكرها ، وحشد حلفائها . وقد ظفرت أخيراً بكسب بولونيا وسلختها عن كتلة الدول المتأثرة بالسياسة الفرنسية وإحداث أول شققة بذلك في المعسكر الفرنسى . ولم تبق ألمانيا بفداحة الثمن الذى دفعته لتحقيق هذه الغاية ، وهو التسليم بالمر البولونى الذى يشق أراضيها الى البحر . وما زالت ألمانيا تتمتع بشيء من العطف في المجر ويوجوسلافيا لأنها تشتري محاصيل البلدين . ولكن ذلك لا يمكن أن يعوض عليها خسارتها الفادحة بفقد معاونة روسيا ومخالفتها ؛ وقد كان إغضاب روسيا وفقدتها من أعظم أخطاء ألمانيا المثلية ، خصوصاً وأن روسيا لم تتحول عن ألمانيا إلا لكي تتفاهم وتتخالف مع فرنسا ألد وأخطر خصومها . وروسيا السوفيتية قوة لا يستهان بها

وقد يكون من المبالغة أن يقال إننا الآن على أبواب حرب قريبة ، ولكن ليس من المبالغة أن نقول إننا نشهد الآن نذر الحرب القادمة ومقدماتها . ومتى هذه الحرب ؟ قد تقع بعد أشهر وربما بعد أسابيع إذا تطورت الحوادث في يوجوسلافيا فجأة ، وأقلت زمام الموقف من يد حكومة بلغراد ؛ وقد لا تقع إلا بعد عامين أو أعوام قليلة إذا بذلت جهود صادقة لاتقانها أو لتأخيرها . وعلى أى حال فليس مبالغة أن نقول إننا نشهد الآن من تطورات السياسة الأوربية أقربها وأشبهها بتلك المرحلة التي تقدمت الحرب الكبرى ، وبلغت ذورة خطورتها في صيف سنة ١٩١٤ . والواقع أن أسباب الأزمة الأوربية الكبرى تجتمع وتتفاهم منذ عامين ؛ وأهمها بلا ريب إخفاق مشروع نزع